الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نوكس

١٣٠٠ — ١٥٦١

---

١ — الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسى يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال — سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده — لتكافح العناصر التى تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشىء من الترحيب بالحضارة وتسهم فيها وهى تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب المجدبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضى المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلندة تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا فى القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق فى المشاعر والأفكار — ومثلهم فى ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور فى الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سيوله الجارفة ، وهو شرس ورقيق ، قاس وشجاع فى آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

بجذوره فى ظروفه الجغرافية والأخلاق فى فقره ، وهكذا نشأ الشح من التربة الحانقة ، وكان الفلاحون يرزحون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم فى العبودية فقـــد فاخروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف الأبجدية فى ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتتين إلى طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم فى الحرب ولا يعطون أماناً فى السلم .ولما كان النبلاء يملكون تفريباً كل أسباب السلطة العسكرية فى فرقهم الخاصـــة فإنهم سيطروا على المجلس النيابى وعلى الملوك . وكان لدى آل دوجلاس وحدهم ٥٫٠٠٠ تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .

وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومنزلية والتجارة مضطربة ، والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد ســـكان سكوتلندة كلها وقتذاك ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة صغيرة تعمل بالصيد وكانت برث هى العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان بأدنبره ١٦٫٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها فى الأنظمة القروية والبلدية التى تتمتع بالحكم المحلى داخلى إطار الإقطاع والملكية . وسمح لأوساط الناس — المواطنين المحررين من سكان المدن — بأن يكون لهم ممثلون فى المجلس النيابى أو مجلس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا بين زملائهم من أعضاء العموم كما فى إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضى من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع فى الأغلبية التى للنبلاء . ولما كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال فى فرنسا ، فإنهم سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .

أما النبلاء فكانوا على طرفى نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا فى إطلاق الصرخة العامة التى تنادى

بأن الثروة القومية إنما تصب فى روما : وكان النبلاء فى اسكوتلندة — وليس الملوك والتجار كما فى إنجلترا — هم الذين نهضوا بالإصلاح الدينى ، أى تحرير العلمانيين من سلطة الكنسيين(١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى النـــاس لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث بابوى حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة فى إسكوتلندة يعادل كل الدخول الأخرى مجتمعة(٢) . وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة . وكان رجال الإكليروس الإسكوتلنديون فى القرن السادس عشر مشهورين بالتضلع فى العلم ، وكانت الكنيسة بالطبع هى التى أسست جامعتى سانت أندروز وأبردين وحافظت عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون — وفى الواقع يعينون — بمعرفة الملوك الذين جعلوا من هذه المناصب مكافآت على خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس ثلاثة من أبنائه من السفاح دخولا كنسية من كلسو وهاروز وهوليرود وسانت أندروز : وكانت الميول الدنيوية لهؤلاء المعينين من الأسرة الملكية مسئولة إلى حد ما عن فساد رجال الإكليروس فى القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر العصور الوسطى ، كان واضحاً فى اسكوتلندة قبل تعيين الملوك للأساقفة بعهد طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكى المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة الذى استفحل شره فى كل مكان فى سائر أرجاء أوروبا فى القرن الخامس عشر ، قد وصل فى إسكوتلندة إلى درجة لم تعرف فى أى مكان آخر(٣) » . ومن هنا نشأ إلى حد ما عـــدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على ما عرفوا به من محافظة على العقيـــدة ، إلى إحلال رجال الدين البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلهم ، وفى عام ١٤٥٥ اضطر قيس فى لينلثجو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسته ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة(٤) . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبنـــاء من السفاح ، وضاجع ماريون أوجيلفى ليلا قبل أن يمضى ليلقى خالقه(٥) ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقـــدها المجلس النيابى الإسكوتلندى على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة . ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الدينى فى إسكوتلندة بكلمات فى هجاء رجال الأكليروس بل إن رجال الأكليروس أنفسهم ، فى المجمع المقدس الكاثوليكى الإقليمى لعام ١٥٤٩ عزوا انحطاط الكنيسة فى إسكوتلندة إلى « الفساد فى الأخلاق والفسق الدنس فى حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً(٦) » . ومهما يكن من شىء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكليروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين — وفوق كل شىء النبلاء والملوك .

٢ — وقائع ملكية ١٣١٤ — ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية فى تاريخ الدولة الإسكوتلندية هى الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مرارا أن يلحقوا إسكوتلندة بالتاج الإنجليزى من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف . وقبلت إسكوتلندة التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللدود لكى تحمى نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والفؤوس المستخدمة فى القتال . ولما كان روبرت بروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً بداء الجذام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثانى ، شأنه فى هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد، على « حجر القدر » المقدس فى دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين فى هاليدون هل، وأقام إدوارد باليو ألعوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ، ولم يسترد دافيد الثانى التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠ر٠٠٠ مارك (٦ر٦٦٧ر٠٠٠ دولار) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذى بدأت به أسرة ستيوارت المشئومة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفى إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً فى بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود؛ واستولوا على درهام وأعدموا كل سكانها — رجالا ونساء وأطفالا وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية فى لعبة الشطرنج الملكى هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ماروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث فى الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبى فى سجن لطيف إلى أن وقع الإسكتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس فى الأسر ، قدراً لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية ، وألف فى مدح هذه « الحمامة البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكثر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً فى عشرات الأمور . فقد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائيين والفرسان ورماة السهام وقاذفى الحراب والصناع المهرة والموسيقيين فى إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقتدراً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التى تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبنى المستشفيات وألزم الحانات بالإغلاق فى الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسى وتقويم حياة الرهبان فى الأديار . وعندما بدأ حكمه النشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة فى إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعى « إذا لم يهبنى الله سوى حياة كلب فإنى سوف أجعل المفتاح يحرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أى يقضى على السطو على البيوت والماشية — فى كل أنحاء إسكوتلندة(٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأقسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتندد بضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتذى » وسمر حدوتى حصان فى قدميها العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حر برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمته وحرص على أن يشنق الوحش بلا إمهال . وفى غضون ذلك اشتجر النزاع فى وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل فى طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصادر الزيادة فى الأراضى المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التى احتاجت إليها لكى تستبدل بطغاة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض — ملاك الضياع الأقل مساحة — إلى المجلس النيابى وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلا للنبلاء ورجال الإكليروس . وفى عام ١٤٣٧ قتلته عصبة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم فى الحياة أو انتزع منهم الأملاك فى مقاومة جيمس الثانى فى الكفاح ضد الملكية التى تنزع إلى المركزية ، وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبياً فى السابعة من عمره دعا وزراؤه إيرل اف دوجلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلا ضيفين على الملك فحضرا وقدما لمحاكمة هزلية وقطع رأساهما(١٤٤٠) ودعا جيمس الثانى لنفسه بعد اثنى عشر عاماً وليام ، ايرل اف دوجلاس ، لبلاطه فى ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله فى ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تآمر على خيانة الدولة مع إنجلترا ؛ واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة فى إسكوتلندة إلا قلعة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه ؛ وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقه هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت مارى ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فإن هنرى الثامن عند ما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية فى الهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية فى فلودن فيلد ، بينما استدار الكثيرون من رجاله وفروا لا يلوون على شىء ، ومات فى تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالحائزة دافيد بيتون — وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير النساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالا ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من مارى أمير اللورين ، شقيقة فرانسيس ، الدوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكى فى فرنسا المنقسمة على أساس مذهبى ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانفصام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا الاوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وعند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم فى سولواى موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذيال الخزى إلى

فولكلاند ، ومات هناك فى ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته فى الثامن من دسمبر مارى ، التى أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء فى صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل اف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطلق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحلف مع فرنسا عقد هنرى الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه فى الشمال أوامر بإحراق كل شىء فى طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيف فى كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخلوق » فى بلدة سانت أندروز[٨] مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل[٩] » . وتعرضت إدنبره يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين فى دائرة قطرها سبعة أميال ودكت دكاً ، وسيق إلى إنجلترا (١٥٤٤) ١٠٠٠ رأس من الماشية ذوات القرون و ١٢٫٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كير كالدای ونورمان لزلى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أما كن يملكها الحزب المتطرف فى الكنيسة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزى ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه[١٠] » . ورحب هنرى بالعرض ووعد بتقديم ألف جنيه إنجليزى لمواجهة النفقات . وفشلت الخطة إلى حين ، ولكنها نفذت فى اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كير كالدای واثنان من آل لزلى وعصبة عديدة من النبلاء والقتلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « فى حالة تلبس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولا بحساباته مع السيدة أوجيلفى فى تلك الليلة[١١] . وأردف نوكس قائلا : « والآن بما أن الطقس حار فقد رئى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقباء من الرصاص ... انتظاراً لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بابتهاج(١٢) » . وانسحب القتلة إلى قلعة سانت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكى يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة مارى ستيوارت لولى عهد فرنسا ، ولكى يحال بينها وبين الوقوع فى أيدى الإنجليز ، أرسلت سراً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة ١٥٤٨) . وقضى ارتقاء مارى تيودور العرش فى إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبى الحدود . وغلب النفوذ الفرنسى على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى مارى أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تذعن إلا لروح العصر الغلابة ووهيت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التى كانت تضطرم بالغضب حولها بابتسامة تنم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وسمحت للهراطقة بحرية كبيرة فى الوعظ والعبادة « إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من مارى تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة مارى أميرة اللورين . كانت أعظم حاكمة رقيقة العاطفة متمدينة عرفتها اسكتلندة قروناً طوالا .

٣ — جون نوكس : ١٥٠٥ — ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الدينى قد مضى عليها مائة عام فى إسكوتلندة ، وفى عام ١٤٣٣ اتهم بول كراور بإدخال عقيدتى ويكليف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقته الدولة . وفى عام ١٤٩٤ استدعى

ثلاثون « لولاردا من كيل » للمثول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد فى المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيس ، ورسامة القساوسة وسلطانهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداسات من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية(١٣) . وبذلك نجد أنفسنا أمام تلخيص يكاد يكون كاملا لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣، وانتشرت ترجمة للعهد للجديد باللغة الإسكوتلندية من إعداد ويكليف فى مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوڤان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فتنبرج وعاد إلى إسكوتلندة مشيعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتزكية بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بآرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفى عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصلحون الدينيون الإسكوتلنديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويه نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع(١٤) .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شنق جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويسرى البروتستانتى الأول، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتى أمر السلطات

العلمانية بمعاقبة المراطقة[١٥] . وأزاحت الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذاك — وكانت فى مبدأ الأمر زوينجالية تتسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة — اللوثرية يوماً بعد يوم فى الحركة الإسكوتلندية . وقدم ويشارت عظاته فى مونتروز ودندى ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة فى إدنبرة فى وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجمعاً إكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة المرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل خنقاً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحولوا عن مذهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات فى التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامى ١٥٠٥و١٥١٥ قرب هندنجتون.ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً،ودرس فى جلاسجو ورسم قساً (حوالى عام ١٥٣٢) ، واصبح معروفاً بتضلعه فى القانون المدنى والقانون الكنسى على السواء . ولا تتحدث سيرته الذاتية « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندة » بشىء عن شبــابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج ويشارت وحارساً شجاعاً له ، يحمل سيفاً له مقبضان . وأخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر بعد القبض على ويشارت ، ثم انضم فى عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصبة التى قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطلبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصلح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقوا على أنهم يسمعوا قط مثل هذا الوعظ الملتهب من قبل . وأطلق على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكل الشيطان » وجعلهامرادفة للوحش المخيف الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التى تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعا[١٦] » . وفى يوليو أبحر أسطول فرنسى وقذف القلعة بالقنابل . وقاوم

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً فى السفن تسعة عشر شهراً . « ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسماع القداس (ويقو لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم فى اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف فى العبارة »

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيا فى إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الجيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعم كثيراً بالعظات ليس فى مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس فى القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ الأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعاظ فى البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك ممتزجاً بالحياة إلى الحد الذى جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائمين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونبهوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفى عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورثمبرلاند فتساءل كيف تأتى فى الغالب الأعم لأنقى الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت مارى التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى دييب وجينيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذى أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية فى فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملامحه كانت جد قاسية بالنسبة لمستمعيه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جينيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تماثل شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جينيف فى عهد كالفن بأنها : « أكمل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحواريين[١٧] » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تتلقى الوحى من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عليها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تغلغل هذا كله فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يجبرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده .

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمها. وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكى ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرّت له بمتاعبها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعند ما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حماة محبة ومحبوبة بهذا القدر .

وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً فى كسب تأييد الحزب البروتستانتى من النبلاء ، وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها « أميرة جديرة بالاحترام » . وهبت حكمة وكياسة تفردت بهما(١٨) . « ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين فى إدنبره وغيرها من الأماكن وكان له الفضل فى أن يتحول على يديه إلى المذهب البروتستانتى أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد ليثنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعى لمارى ستيورات الذى قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم إيرل ا ف مراى أو موراى . ولم ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ، فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله ، وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلل من إسكوتلندة مع زوجته وأمها ، (يوليو سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق فى غيابه سوى تمثال له ، وأضفى عليه هذا التجسيم لاستشهاده بدون ألم نبلا فى عيون البروتستانت الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصـــلاح الدينى الإسكوتلندى ، حيثما حل.

ولقد طور وهو فى جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج الكالفينى الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعاية أبرشيته وسلوكهم ، ودعا فى الوقت نفسه مسز آن لوك ، التى تحولت عن عقيدتها على يديه فى لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتى مع ابنتها لتعيش بالقرب منه فى جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضنى لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إنى لأبكى وأبتهج عندما أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء فى حضورك ، الذى أؤكد لك أنه جد عزيز لدى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقنى ، لحضرت إليك قبل رسالتى . . ولو لم يمنعك بعلك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبى ؛

نعم ، وما كنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك إلى هذا المكان(١٩) .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلها ، ووصلت إلى جينيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة وخادمة . وماتت الإبنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التى تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدراً للراحة كما كانت من قبل ، فى تلبية حاجات الواعظ . وليس لدينا دليل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أى شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ نفسه أماً ، وكانت له طريقته باسم المسيح.

بل كانت له طريقته فى كل شىء تقريباً . وكان مثل كثير من العظماء ، صغير الجسم ، بيد أن كتفيه العريضتين كانتا تنمان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطلع إلى السلطة . شعر أسود وجبهة ضيقة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف ينم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشفتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مستطيلة ، ونحن نجد فى هذا تجسيداً للإخلاص والرغبة فى السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثا فى كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدبر الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد فى الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخلو فيها من العمل للراحة الطبيعية(٢٠) » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتوره إلى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه إلى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على القيام بثورة محفوفة بالمخاطر فى إنجلترا أو إسكوتلندة فى الوقت الذى بقى فيه فى جينيف أو ديبب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نورثمبرلاند فى وجهه وجاهر فيما بعد بالدمقراطية فى وجه ملكة . ولم يكن فى الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاءه وحيوه باعتباره رسولا من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « إنه ينفخ فينا من الحياة أكثر مما يفعل ١٠٠ بوق تضج فى أذاننا(٢١) » .

وكانت العقيدة الكالفينية مصدراً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة واللعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصومهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثواهم عاجلا أو آجلا . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطانى(٢٢) » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحى لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون جوانحهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأفتهم تماماً من الأرض : ونعم بتلك الكراهية الكاملة التى يثيرها الروح القدس فى قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسة(٢٣) » وفى الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر(٢٤) وتناقضات السياسة(٢٥) المرنة . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومع ذلك فإن فلسفة نوكس الأخلاقية فى ظاهر أمرها كانت تتعارض تماما مع فلسفة مكيافيلى . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقى المطلوب من المواطنين ، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه فى الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذى استشهد على الصليب . فقد كان فى وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أو يحرقها بنبوءات ملتهبة . وادعى أنه يملك قوة تنبئية ، وتنبأ حقا بوفاة مارى تيودور المبكرة وسقوط مارى ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأى لا يخطئ الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحيانا على أخلاقه . إذا اعترف(٢٦) فى سماحة « إننى بفطرتى جلف غليظ » . وعزا فراره من إسكوتلندة إلى الضعف البشرى والخبث(٢٧) .

وكان وراء زمجرته دعابة جافة ، وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً بقدر ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو إنشاء سلطة يتمتع بها نظام كهنوتى مطهر وعالم يشرف على الجنس البشرى ويبدأ بالإسكوتلنديين . وكان من رأيه أن النظام الكهنوتى الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه فى مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أى رجل آخر فى عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسى وكانت تضارع رسائل لوثر فى قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ، كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور الروحى(٢٨) » . وكان الكثالكة « بابويين أضر من الوباء » و « تجار قداس » وكان قساوستهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يبزه فصاحة فى ذلك العصر الفصيح . وعندما تزوجت مارى تيودور من فيليب الثانى انفجر نوكس غاضباً فى رسالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمى حقيقة الرب فى إنجلترا » (١٥٥٤) .

ألم تثبت مارى أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطورى باستقدامها أجنبياً ، وتنصيب ملك إسبانى متعجرف ليلحق الخزى والعار والدمار بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضيهم ومقتنياتهم ومناصبهم الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملاك الأراضى ، ويجعل عامة الناس يرسفون فيها فى قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب الصحيحة ، وحتى يقوض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية إنجلترا بأسرها .... إن الله برحمته السابغة ، يبعث بنحاس أو إليا

أو يهوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك الجمع بأسره(٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة وجمالا ، وجديرة بسانت بول الذى ألهمهم ، مثل « رسالة إلى إخوانه فى إسكوتلندة » لن ألجأ إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجيل الخبيث ، وأنكم سوف تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل قمحة وسط صدفة ... ومن عداد الرجال المتهللين العقلاء ، وتملأون مصابيحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر الظهور المجيد ليســوع الرب ومجيئه ، وهو الذى تحكم روحه القديرة وتعلمكم وتنير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن وإلى الأبد(٣٢) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول « نفخة فى البوق ضد كتيبة النساء المروعة » التى دبجت فى ديبب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس أنه وباء الحاكمات من النساء فى أوروبا — مارى تيودور ومارى أميرة اللوريين ومارى ستيوارت وكاثرين دى مديتشى . وقد وسعنا أن ندرك مدى هلعه من تطبيق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها فإن نوكس يعدها وحشاً ووصمة سياسة تنتهك القاعدة الطبيعية التى تقول إن الرجال يجب أن يحكموا الدول . وبدأ يقول « لا عجب أن نجد بين كثير من العقول الخصيبة التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من الوعاظ الورعين والمتحمسين بقدر ما اطعمت أحياناً ، ولا يوجد بين الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفتهم إيزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . . يجرؤ على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خالنة وابنة سفاح ، وماذا فى وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعى أن تفعل بسلطة الرب فى انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم . . . إننا لسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبرطورية المتوحشة لامرأة قاسية ، نعلم أنها وحدها سبب كل هذا الشقاء . . . إن الارتقاء بامرأة لكى تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أى مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التى جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض لدعائم نظام وطيد ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذى يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والمخبولين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال فى احتمال السلطة ... فالمرأة فى أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمره(٣٣) .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من الكتاب المقدس لكى يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل فى أعماق التاريخ ، وبحث عن أمثلة لدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلعنة الواثق من حكمه :

إن إيزابل اللعينة ملكة انجلترا هى وجيل البابويين المقيت المؤذى كالوباء لا يألون جهدا فى الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على ويات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذى سوف يقبض فيه على ذلك المسخ

الفظيع جيزيل ملكة انجلترا ... قد تحدد فى مجلس الحى الباقى ... وليعلم هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفخ فيه(٣٤) .

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحرمت مارى تداول الكتاب باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .

وعاود نوكس الهجوم فى رسالة بعنوان : « نداء إسكوتلندة وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يحرضون الناس على عبادة الأوثان(*) ينبغى أن يعفى من عقوبة الإعدام . . . ويجب تطبيق الحكم نفسه فى مكان يؤمن بيسوع المسيح وإنجيله . . . اللذين اعترف بهما الحكام والناس فى خشوع ، ووعدوا بالدفاع عنهما ، كما حدث فى عهد الملك إدوارد فى الأيام الأخيرة بإنجلترا . وفى مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على من يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس ملتزمون بأن ينتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم ... وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب فى إنجلترا كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا مارى ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها فحسب . . . بل عليهم أن يقتصوا منها بإعدامها(٣٦) .

وحث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأى الخاص بالثورة الشرعية على مارى أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على العرش قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فرنسيين ليأكلوا مدخرات الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وذريتنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل بالقديسين وعبادة الصور واستيفاءها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يحويها كتابه المقدس(٣٥) » .

وبينما يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ، وبينما ذوو الكروش والطلعة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى رجل ورع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف ننشد تقويم هذه الأعمال الفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر الالتجاء إلى قوة السلاح ، إذا رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التى تمس الله سبحانه وتعالى ، لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو فى الهيأة ، طبقاً لما يتيحه الله من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذى لحق بمجده(٣٧) :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية فى بيانات نوكس . وكان لا بد أن يتفق معه فى تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم هوجينوت فرنسيون مثل هوتمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا — وإذا اقتضى الأمر يقتلوا — خصومهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات محكمة التفتيش شؤماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ، والمدن التى تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف وتدمر تماماً ، ويقضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى ينهدم ، ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الخالية من الرحمة أفزعته فى بعض الأحيان : قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه صدر عن غضب لا عن تعقل . . . . وأى مدينة : . . لا يوجد فيها أبرياء مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقترفون الكفر أو يستسلمون له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت القاسى . بيد أنه فى مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحنى جميع المخلوقات وتغطى وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقى ، إذا كان هناك أمر منه تعالى بتنفيذ إرادته(٣٨) .

وعلينا ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التى قضاها فى جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذى يصل إلى درجة الغرور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد بيز عليه : ومع ذلك فإن رجلا مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب فى تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مفحماً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أب محب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشراً كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية : وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلا طبيعياً لأن يحبوا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلا إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قذفاً فى حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشرى ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التى تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويحلقوا فوق السماوات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول فى موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضلان الناس عن الله الحق . وأى وقاحة أن يفضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة(٣٩) ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد فى قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عندما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحه فيها بأن يكفر عما قامت

به مارى من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاقى إجباريين فى سائر البلاد ؛ ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فى ذلك العام إلى إسكوتلندة ليشرف على إيديولوجية ثورتها .

٤ — جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ — ٦٠

لقد امتزجت دعواته الإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأناجيل والنشرات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش لنبلاء الإسكوتلنديين للأرض وإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغاليين المتغطرسين أثناء وصاية مارى أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شىء يحيل حياة الدخلاء بؤساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فى كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فإن روح القومية رددت نغمات عالية مناهضة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية — حملت فيها تماثيل للعذراء والقديسيين عبدت فيما يبدو ، وعرضت مخلفات وقبلت باحترام — فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفى سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فى « الكنيسة الأم » التى تحمل هذا الاسم فى إدنبرة وغمروها فى بركة ، وأحرقوها فيما بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروى نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فى كل أرجاء البلاد .

وفى الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فى إدنبرة (التى كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد عام ١٥٤٢ « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلنكرن ومورتون ولورن وإرسكين — ووقعوا « أول ميثاق إسكوتلندى » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » — أى الكنيسة ، وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شىء » ، ودعوا إلى « إصلاح فى الدين والحكومة ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية ، التى تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغى استجابة لأمر الله » ، وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتتلندة ، وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب لإنجلترا فى عهد إدوارد السادس يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ، واحتج الأساقفة البروتستانت على هذا الانشقاق الجرىء وحثوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قمعه . فأمر فى شىء من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) — بإحراق والتر ميلن — وهو قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يبشر بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكنون احتراماً عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير لبروتستانتى إسكوتلندى بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق الموضع الذى مات فيه ؛ وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأنذروها أنهم لن يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الدينية ، وأنذر لوردات جماعة المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف[٤٠] » وأرسلوا فى ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونه إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقالها ، ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرت « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغيضة » و« الوصية التى أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب(٤١) » . وخرج « الجمع الأثيم » كما يصفه من الطاعة ، وعندما حاول قس فى كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه فى الوقت الذى لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة فى كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء فى رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبى ضربة شديدة ، فتناول فى غمرة غضبه حجراً وقذف به القسيس وأصاب قدس الأقداس ، وحطم أحد التماثيل ، وما لبث أن قذف الجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعملوا أيديهم فى قدس الأقداس المزعوم وفى سائر آثار عبادة الأوثان(٤٢) » . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله » . وما هى إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة الكبيرة . . . . قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران(٤٣) » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج مارى تيودور ، وأن تقضى على كبار البروتستانت ، وكان الثوار المنتصرون فى برث وحولها فى غضون ذلك يهددون بقتل أى قسيس يجرؤ على إقامة القداس(٤٤) . وفى ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهرهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مشئوماً :

« إلى عظمة الوصية على المملكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد خدمنا السلطة فى إسكوتلندة ، هى وعظمتكم ، بالمخاطرة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحنا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعلن لعظمتكم أنه ما لم تتوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم ، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل فى وجه كل من يطاردوننا فى سبيل الدين . . . إن جريمة القتل القاسية الظالمة التى بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجماهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد لتمردنا على خضوعنا التقليدى ، الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين) ولزوجها ولعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضمائرنا بالطمأنينة والحرية اللتين اشتراهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رعايا عظمتكم الخاضعون لكم فى جميع الأمور التى لا تغضب الرب — جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى اسكتلندة[٤٥] » ؟!

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذين كالوباء ورهبانهم . . : إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ، أينما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . ولن يبرم معكم عقد صلح قط إلا إذا انقطعتم عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى لأبناء الرب[٤٦] » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتائب الجند ، ولكن أنصار جماعة المصلين تجمعوا صفاً مسلحاً ، وأدركت مارى أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، فوقعت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ، وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بنواهى كبير الأساقفة ، فوعظ فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ — ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان « عن كنائس المدينة وأحرقوا هذه التماثيل أمام عينى رجال الدين الكاثوليك[٤٧] . وهرب كبير الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن والعشرين نهبت دير سكون وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله فإن « ربة ببت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفنى الذاكرة لم يكن إلا وكراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من زوجة زنى بها ، وكم من عذراء افتض بكارتها الوحوش الدنسة ، التى كانت تحتضن هذا الوكر »، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . . الأسقف (٤٨) » .

وكانت مارى أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تتوقع وفاتها فى أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة المصلين تفوقت عليها فى المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابث ملكة إنجلترا . وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها فى رسالته « نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته إليزابث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحقق اعتماد إسكوتلندة على إنجلترا سياسيا . وأدركت أن هذا إجراء وقائى مشروع ضد مارى ستيوارت ، التى كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابث ابنة سفاح مغتصبة للعرش . وسرعان ما أغلق أسطول إنجليزى فى مضيق فورث الطريق أمام نزول أى مساعدة فرنسية للوصـــية على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجليزى إلى قوات جماعة المصلين فى مهاجمة ليث . وانسحبت مارى أميرة اللورين إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيه سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ فى مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت فى وجوههم السبل وأوشكوا على الموت جوعاً . وفى السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع ممثلو جماعة المصلين ومارى ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التى

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين مارى وإليزابث . . . وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلندة ، وكفت مارى استيوارت وفرانسيس الثانى عن مطالبتهما بالتاج الإنجليزى ، واعترف بمارى ملكة على إسكوتلندة ، ولكن حظر عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال أو اثنى عشر رجلا للتعيين فى مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبى أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام، مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ، وانتصاراً مبيناً لجماعة المصلين لم تكد تسفك فيه دماء . .

وقبل المجلس النيابى ، الذى اجتمع فى أول أغسطس سنة ١٥٦٠ اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه ميتلاند ليثنجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلندة المشيخية نرى لزاماً علينا أن نسجل بعض مواده الأساسية تذكيراً بها :

١ — نعترف ونقر بوجود إله واحد أحد . . . . فى ثالوث :

٢ — نعترف ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً ندرك أنه أبونا الأول آدم — خلق منه الله امرأة على صورته . . . حتى لا نلاحظ أى نقص فى طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة .

٣ — وبهذه الزلة ، التى يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنست صورة الرب تماماً فى الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء للرب ، عبيداً للشيطان وخدماً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ، وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

أو سوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل فى أفئدة أصفياء الرب فتمتلىء إيماناً لا يتزعزع بوعد الرب . وبهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب الباّ نفسه . . . برحمته وحدها اختارنا فى يسوع المسيح ... قبل خلق العالم ....

١٦ — إننا نؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحبة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكى يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح ... وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نمقت بشدة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتنقونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لا لأننا نتصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعترف ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله ... فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (٤٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل القعيدة والشعيرة اللتين تبناهما الإصلاح الدينى إجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يقيمه للعقوبة البدنية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنفى

عند ارلكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة . ولكن لما كان للنبلاء الذين يتحكمون فى المجلس النيابى يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفينى حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كثالكة ، بقى معتدلا نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للنبلاء برفض الاعتراف بالمطهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا فى جانب من ذمتهم المالية بالهبات التى قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً للاهوت الجديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير فى بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استرداد للأموال المختلسة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى النبلاء على ثروتها ولم تدير الحكومة فى مبدأ الأمر أى مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدلوجيين فى الثورة ، ولكن النبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت . وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحوا بالكثير من أجل النظام الجديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة فى مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها . والتمسوا من المجلس النيابى إقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم فى آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النهمة وبدأ الحلف التاريخى بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الدينى الإسكوتلندى بين حركات الإصلاح الدينى جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكثالكة فى صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التى كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعـد القديسون يهيئون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك فى أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضى وبالغت فى مثاليته . وليس من شك أيضاً فى أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل يراودهم ، مجىء ملكتهم الشابة من فرنسا .

ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال فى الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعا ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كئيبة ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

وخفت وطأة تبادل التهم وهيأ الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتى يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكا ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .